

الحلقة (١٠)

انتهينا في اللقاء السابق عند جزئية يسيرة وهي مسألة اللغو في الأيمان، وقلت لكم أن الحديث سيعود هنا بتفصيل عن الحياة الزوجية، بيد أنها في جانب آخر منها، وهذا الجانب ما قبل الطلاق. قبل الآيات تحدثت عن تكوين الأسرة من حيث ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾ الآية، ثم هذه المرأة انتقلت من بيت أهلها إلى بيت الزوجية، وبيت الزوجية مملكة خاصة بها، والأمور في بداياتها حيث - كما يقال - لكل جديد لذة، بعد ذلك تنتقل الآيات عن أخص من المسألة الأولى مسألة اختيار الزوجة واختيار الزوج، المعاشرة الزوجية، وما يحل وما لا يحل فيها، ثم بعد ذلك انتقلت الآية لتبين أن الحياة الزوجية بين الزوجين حياة مفتوحة لا خصوصيات إلا في جوانب ضيقة منها، ثم جاءت الآيات التي تنهى عن أن يجعل الإنسان اسم الله عز وجل عرضة ويحلف يمناً ويسرة إن بحق وإن بغير حق، ثم الآية التي استثنت ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

إذاً نأتي إلى مشهد جديد من مشاهد الحياة الزوجية، فنحن نعلم أن الحياة فيها منغصات وفيها غير المنغصات، والشاعر أبو الحسن التهامي يقول:

طبعت على كدر وأنت تريدها***صفواً من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها***متطلب في الماء جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما***تبني الرجاء على شفير هار

❖ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)﴾

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ الآيتان من سورة البقرة.

إذاً هذا مشهد في الجانب الآخر من الحياة الزوجية، في البداية هناك الضحكات من هنا وهناك وهناك ابتسامات، ثم ننتقل إلى المرحلة الثانية فلا نتصور أن تكون في الليلة الأولى مشاكل هذا غير متصور إلا في الأندر، إلا أنه مثل ما قالوا تمر شهرين سنة سنتين، من السنة الثالثة تبدأ المشاكل فيأتي هذا الرجل لأمر قد يكون تافه يحلف ألا يقرب زوجته أربعة أشهر أو لا يكون أربعة أشهر يقول لا أقربها أبداً، فهذا الحلف يترتب عليه أمور فكيف ذلك؟ أيضاً إن هو حلف، فقال والله ما أقربها أبداً؟ ما تقربها إلى متى إلى قيام الساعة إلى الموت؟ لا، الشرع جعل هناك ضوابط حتى لا يتضرر أحد الطرفين، فإذاً هو حلف الآن وأصر على هذا كيف الحكم؟ وقال أبداً أنا ما عندي استعداد أتكلم في هذا الموضوع، إذاً هذا له حكم آخر سنعرفه من خلال الآيات.

❁ مفردات الآيات:

﴿ قوله تعالى: ﴿يُؤْلَوْنَ﴾ معناه يحلفون، والمصدر إيلاء وألوة وإلوة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (للذين يقسمون) وهذه قراءة تفسيرية، فلا يعتبر قرآن إلا ما استقر عليه مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه، وأما ما عدا ذلك فهو قراءة تفسيرية، فقراءة ابن عباس قراءة تفسيرية تؤكد على أن المراد بالإيلاء الحلف، قال ابن عباس رضي الله عنهما (كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك أذى المرأة عند المساء، فوقت لهم أربعة أشهر) إذن يأتي الرجال يقول لا أتكلم في هذا الموضوع أبد الآبدين، إلى متى؟ إلى أن تموت هي، إلى أن يموت هو الخ، فجاء الإسلام ليرفع الظلم والضرر عن المرأة وهي الجانب الأضعف في الحياة الزوجية، هذا الظلم رفع بالآية الكريمة، وإلا في الجاهلية على كلام ابن عباس واضح في هذا السنة والسنتين على اختلاف القبائل العربية منهم من يطيل المسألة.

﴿ قوله تعالى ﴿تَرْبُصُ﴾ التربص هو التأني والتأخر.

﴿ قوله تعالى ﴿فَاءُوا﴾ معناه رجعوا، ومنه قيل للظل بعد الزوال فيء، وهذا مستعمل حتى الآن، يعني القرآن الكريم هو الحافظ والوعاء للغة العربية، هناك ألفاظ استعملها القرآن ما كانت العرب تعرفها، وكذا جاءت في الحديث وإن كانت قليلة ألفاظ ما كانوا يعرفونها، في قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما معنى فاطر؟

فابن عباس وهو ترجمان القرآن حبر هذه الأمة يقول: والله ما أدري ما فاطر حتى اختصم عندي أعربيان على بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا حفرتها، أنا ابتدأتها، ففهم ابن عباس أن فاطر أي خالق وموجد دونما مثال سابق، فهذه من الكلمات التي كانت غير معروفة.

وفي الحديث النبوي استعمل الرسول ﷺ مثل: الآن حمي الوطيس، ما كانوا يعرفون حمي الوطيس، أيضاً (إياكم وخضراء الدمن)، هذه بعض الألفاظ التي استعملت، بعضهم أوصلها إلى خمسة ألفاظ بالنسبة للحديث النبوي.

المهم أن القرآن هو الحاضن والحجة على العربية، ولذلك تجد الآن بعض الناس يستعمل الفيء، يقول إذن لفظة صحيحة صريحة بل جذورها في القرآن الكريم، إذن القرآن يستعمل ألفاظ لم تكن معروفة من قبل.

فاءوا: قلنا معناه رجعوا، وفيء: الظل بعد الزوال لأن الظل يعود من جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء فيء فيء وفيوءاً وإنه لسريع الفيئة أي الرجوع، فإذا المادة تدل على أن هناك شيئاً حصل، فهذا الشخص الذي حصل منه الشيء أراد أن يرجع عنه.

﴿ قوله تعالى ﴿عَزَمُوا﴾: العزيمة تتميم العقد على الشيء، يقال عزم عليه يعزم عزمًا بالضم وعزيمة وعزيمة وعزماً واعترماً واعتزماً وعزمت عليك لتفعلن أي أقسمت عليك، إذاً المادة كلها تدل على أن هناك عقداً قلبياً جازماً على إنفاذ شيء ما، وهذا الشيء طبعاً يلجأ إليه وقت الضرورة.

﴿ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾: الطلاق: طلقت المرأة تطلق طلاقاً فهي طالق وطالقة أيضاً، ونحن ذكرنا عند قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ ما قال الفراء أنه سمع عن بعض العرب: (امرأة حائضة) وهنا أيضاً امرأة طالقة، وقلنا إن هذه الصفات تختص بالإناث فيستغنى عن الهاء، ولكن توسعاً، واللغة واسعة كما يقول أبو عمرو البصري المقرئ: ما جاءكم عن العرب إلا قليل ولو جاءكم كله لجاءكم خير كثير، وأولى من هذا قول الشافعي رحمه الله تعالى: (اللغة لا يحيط بها إلا نبي)، فيقال في مادة الطلاق طلقت المرأة تطلق طلاقاً فهي طالق وطالقة أيضاً، والطلاق حل عقدة النكاح وأصله الانطلاق، والمطلقات المخليات، والطلاق التخلية، يقال معدة طالق وناقاة طالق أي مهملة قد تركت في المرعى لا قيد عليها ولا راع، وبغير طلق غير مقيد والجمع أطلاق. فالمادة تدل دلالة واضحة على أن هناك شيئاً انفرط، وهذا الشيء هو كسر الحياة الزوجية بعد أن تكون هذه الحياة استعصت على المضي قدماً في مواجهة الحياة على ما فيها من أحوال مرضيات ومبغضات أحياناً، ولكن أبغض الحلال عند الله تعالى الطلاق فإذا صعبت الحياة ولم يكن ثمة هروب من الطلاق إذن وكما قال الأول: إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً*** فما حيلة المضطر إلا ركوبها.

❁ الأحكام الفقهية من الآيات:

﴿ اختلف العلماء فيما يقع به الإيلاء من اليمين، كيف يكون الإيلاء يميناً أو يكون طلاقاً؟ فقال قوم لا يقع الإيلاء إلا في يمين بالله تعالى وحده، يعني من الصيغ، وهذا في باب العقيدة لا يجوز الحلف إلا بالله عز وجل أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، أما غير ذلك فلا يجوز للمسلم أن يحلف به، فإما أن يحلف بالله أو لا يحلف. فالإيلاء لا يكون يميناً وتجري عليه الأحكام إلا إذا حلف بالله تعالى وحده، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كل يمين منعت جماعاً فهي إيلاء) وإليه ذهب مالك والثوري والشعبي وابن العربي وابن المنذر، والجمهور ذهب آخذاً بقول ابن عباس، فالحلف الذي يعد إيلاءً هو الذي يمنع الجماع، يعني إن قال وبالله وتالله والله هذه صيغ صريحة، لكن لو قال والذي خلق السماوات والأرض هذه تعد يميناً.

← **مسألة:** وهي متى يكون المولي مولياً؟ واختلف العلماء في الإيلاء المذكور في القرآن

❁ **القول الأول:** فقال ابن عباس لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يمسه أبداً، يعني لا يأخذ حكم الإيلاء إلا إذا حلف وقال "والله لن أقربها أبداً" أو "والله أنا لن أقرب هذه المرأة" دون أن يقول أبداً.

❖ **القول الثاني:** والذي عليه الجمهور هو أن يحلف أن لا يطاءً أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لا يكون مولياً، وكانت عندهم يميناً محضاً ولو وطئ في هذه المدة لم يكن عليه شيء كسائر الأيمان.

❖ قوله تعالى: ﴿مِنْ نِّسَائِهِمْ﴾: يدخل فيه الحرائر والذميات والإماء إذا تزوجن، والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته.

❖ قال أحمد والشافعي وأبو ثور: إيلاؤه مثل إيلاء الحر، ودليلهم ظاهر قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ﴾ فكان ذلك لجميع الأزواج.

❖ وقال مالك والزهري وإسحاق أجله شهران.

❖ وقال الحسن والنخعي إيلاؤه من زوجته الأمة شهران، ومن الحرة أربعة أشهر، وبه قال أبو حنيفة.

❖ وقال الشعبي (إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة) هذه أقوال العلماء وبسطها وأدلتها وترجيحاتها إنما في كتب الفقه.

❖ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾: قال ابن المنذر أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الفيء الجماع لمن لا عذر له، فإن كان له عذر مرض أو سجن أو غير ذلك فارتجاعه صحيح وهي امرأته. فإن فاءوا الفيء في هذا الباب يكون بالجماع، طبعاً المقصود قبل مضي الأربعة أشهر، فإن مضت الأربعة أشهر فله حكم آخر يدخل في باب آخر، وابن المنذر ذكر أن العلماء يرون أن الفيء يعود الرجل إلى امرأته بالجماع فإن لم يستطع الوطء المهم أنه نوى فالعود صحيح.

❖ **مسألة: إن فاء المولي فما الحكم؟**

إذا فاء المولي فقد أوجب الجمهور الكفارة عليه، إذا عاد خلال الفترة الزمنية التي لم تتجاوز الأربعة أشهر فإن الكفارة تلزمه، دليلهم قوله ﷺ: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) والحديث صريح صحيح دال على أن أمر عودة المرأة إلى زوجها خير، فعلى الزوج أن يكفر، وبهذا تكون المياه عادت إلى مجاريها إن شاء الله، وقال الحسن لا كفارة عليه والراجح هو قول الجمهور القائلين بإيجاب الكفارة على الزوج، وهناك تفريعات تتعلق بالمختلعة وهذه كلها موجودة في كتب الفقه.